حكايات هارون الرشيد بين التاريخ والفولكلور[1]

قراءة في أدب الحكايات كما ينعكس في كتاب "إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس" للأتليدي

أ.د.غالب عنابسة

رئيس قسم اللغة العربية

الكلية الأكاديمية لإعداد المعلمين العرب

"بيت بيرل" – باقة الغربية

jaleb.anavsa@beitberl.ac.il

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

غالب عنابسة ، حكايات هارون الرشيد بين التاريخ والفولكلور.- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن ؛ يونيو ٢٠١٠. ص٨ – ١٣ (www.historicalkan.co.nr).

ملخّص[1]

تتناول هذه الدراسة حكايات هارون الرشيد كما وردت في كتاب "إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس" ، لمحمد دياب الأتليدي ، بالمقارنة مع مصادر أدبية وتاريخية أخرى. لقد لا حظنا بأن الحكايات التي أوردها الأتليدي في كتابه ليست مواد تاريخية ، ولا تمت إلى الواقعية بصلة ، وقد اشرنا لاحقا بأن المؤلف نفسه قد صرح بأنه ليس مؤرخا عندما طلب منه تأليف الكتاب. ويبدو لنا بأن الهدف قد يكون للتسلية أو ربما لأغراض سياسية-اجتماعية أخرى كما جاء في مقدمة الكتاب. لا شك لدينا أن المؤلف قد جمع مادته من مصادر قديمة ، وهنا نجد نوعا من الأصالة لديه من جهة ، ومن جهة أخرى لا تعبر عملية النقل عن استقلالية المؤلف. المشكلة التي واجهتنا لدى قراءتنا الفصل الخاص بهارون الرشيد أن المؤلف قلما يشير إلى المصدر الذي نقل عنه ، نخص بالذكر مجموعة ألف ليلة وليلة ، ربما لأنها ليست مجموعة ضمن ما أسميناه الأدب الرسمي. بالمقابل يذكر المؤلف بعض المؤلفات الرسمية ، مثل تاريخ بغداد للبغدادي ، والفرج بعد الشدة للتنوخي. وقد توصلنا في نهاية الدراسة أن حكايات الرشيد في الكتاب قد ألصقت إليه وهي بعيدة عن الواقعية ، وهذا ليس غريبا في الأدب العربي القديم ، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن بعض المواد لم تتميز بالأصالة والواقعية التاريخية.

مقدمة

لقد ظهرت في الأدب العربي القديم مواد مختلفة وفق أجناسها المختلفة ، كالقصص والحكايات الشعبية ، والنوادر والخرافات والأساطير ، والحكايات على لسان الحيوان ، وغير ذلك من مواد قد استوعبها الأدب العربي ، وأخرى قد مجّتها أذواق القراء.

لا نغفل أن بعض المواد الأدبية لم تكن رسمية ، بسبب طابعها الخيالي ، أو أنها مواد تعتبر في إطار "ما وراء الأدب الرسمي". [2] Non Standard. وهكذا برزت في التراث العربي القديم مواد أكثر شعبية لعب الخيال دوره فيها ، سواء أكانت هذه المواد أدبية أو مستوحاة من التاريخ ، أو ربما فولكلورية.

وحول مسألة السرد القصصي ، فمن المعلوم أن القصة قديمة عند العرب[3] ، نجد عناصرها في الشعر الجاهلي وكذلك في الشعر والنثر

---

(1) J. Sadan, "The nomad versus sedentary Framework in Arabic Literature " *Fabula* XV 1974, pp. 59- 86; M. Jacobs and B. I. Stern, *An Outline General Anthropology*, N.Y 1980, p. 21-22; Dan B. Amos, "Toward a Definition of folklore in Context, in: *Culture and Social Anthropology*, N.Y 1975, p. 359-361.

قارن: عبد الحكيم شوقي ، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ٣٢٧-٣٢٩.

(٢) انظر: يوسف سدان ، الأدب الهازل ونوادر الثقلاء ، ٢٩.

U. Marzolph, Arabia Ridens, Frankfurt, (1992), pp. 25-30; van Gelder, "Mixtures of Jest Earnest", Journal of Arabic Literature, 22 (1992), pp. 83-108; G. von Grunebaum, " The Spitit of Islam as Shown in its Literature", Studia Islamica I (1953),pp. 101-119.

(٣) ليس المقصود هنا القصة بالمفهوم الأدبي أو الفني التي نشأت في الأدب العربي الحديث بتأثيرات غربية ، كونها تعتبر ضمن الأجناس الأدبية الحديثة ، سواء أكانت رواية أو قصة قصيرة.

الأمويّ، لكنها لم تصبح فناً أدبياً، إلا في العصر العباسي، بعد أن ترجمت أقاصيص الهند والفرس كقصص: كليلة ودمنة، وحكايات ألف ليلة وليلة، ووضعت القصص الدينية، وقصص البطولة: كسيرة عنترة وغيرها مثل القصص الغرامية.

إن قصص الأتليدي في كتابه المذكور أعلاه، منها ما هو ديني، ومنها ما هو بطولي، وجلها غرامي، وغرامي غنائي، أو خمري. وكثيراً ما يشعر القارئ بما في بعضها من مخالفة للمعقول، كالتي تروي مثلاً: اجتماع إبراهيم الموصلي وابنه اسحق، وأبي نواس، بإبليس، وما دار بينهم من غناء وأحاديث، وعلى ذلك فإنه يسر بقراءتها ويستلذها لما فيها من حوادث شائعة تبعث فيه الفضول وتروقه وتسليه.

عندما نطالع صفحات كتب التراث، نخص بالذكر شخصيات هامة في المجتمع العربي والإسلامي، نظن أن هذه المواد التي وردت فيها الشخصيات تنسجم مع الواقع، رغم بعدها عنه وعن الشخصية التي هي بصددها، فيما إذا قارنا بين الواقع التاريخي ونهج القصة.

تأتي هذه الدراسة لفحص ماهية قصص الخليفة هارون الرشيد كما وردت في كتاب محمد دياب الأتليدي (ت. ١٦٨٨م) "إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس"، بالمقارنة مع مؤلفات تراثية أخرى، احتوت على أدب الحكايات أو القصص. وقبل تناول الكتاب لا بد لنا من الوقوف على حياته بإيجاز.

محمد دياب الأتليدي

محمد دياب الأتليدي هو مؤلف الكتاب أعلاه، ولد في المنية في مصر، وسكن القاهرة، وتوفي فيها سنة ١٦٨٨م، ويدلنا هذا على أنه كان من كتاب عصر الانحطاط، ونرى أثر هذا العصر واضحاً في ما وضعه في كتابه هذا من تعابير وألفاظ عامية، وقد سماه بهذا الاسم من باب تسمية الكل باسم الجزء، لأن أخبار البرامكة لا تستغرق إلا قسماً يسيراً منه، في حين أن الأقاصيص والحكايات التي تتناول ما كان في صدر الإسلام، وأيام الأمويين، وغيرها من الأقاصيص العباسية وغير العباسية تستغرق معظمه.

والأتليدي كان أميناً في نقله عن غيره نسبيا، ينسب كل حكاية أو أقصوصة إلى الكتاب الذي نقلت عنه، أو إلى من رويت عنه، نشير أن أكثر ما نقل عنه، روايات الأصمعي المتناثرة في كتب التراث، بالإضافة إلى كتاب "حلبة الكميت" لشمس الدين النوّاجي، وكتاب "حياة الحيوان الكبرى" للدميري، و"الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني، و"الفخري في الآداب السلطانية" لابن الطقطقا، و "الفرج بعد الشدة" للتنوخي، و "مروج الذهب" للمسعودي، وقصص ألف ليلة وليلة، وتاريخ بغداد للبغدادي، وفي كل القصص التي جمعها في كتابه هذا نرى من جمال السرد وترامي الخيال وحسن الاختراع ما يدل على تمكن الروح القصصية عند العرب.

لكن تقع أمام الباحث مشكلة مفادها انه في بعض الأحيان يسرد الاتليدي قصته تحت عنوان وقع في كتاب معين، ولا يشير إلى الكتاب الذي نقل عنه، مما يتطلب الأمر جهدا ليس يسيرا من اجل معرفة مصدر النقل، وهي مسألة في غاية الأهمية.

قد يوحي كتاب الاتليدي بان القارئ مقدم على كتاب يسجل أحداثا تاريخية محضة، خاصة إذا قرأنا العناوين في فهرس الكتاب، كذكر خلافة هارون الرشيد، والمأمون والمعتصم وغيرهم من خلفاء بني العباس. ولكن القارئ سرعان ما يتوصل إلى نتيجة بان الكتاب فيما إذا اختبرنا الكثير من الحكايات فيه وقارناها مع الكتب التاريخية أو الأدبية نتوصل إلى انه اقرب إلى فن السرد القصصي، أو السرد الفولكلوري، مع وجود عناصر تاريخية لديه، ولكن هذه العناصر لم تنقل عن كتب تاريخية.

قد يواجه الباحث أحيانا صعوبة في تحديد واقعية المواد المتناثرة في الكتب الأدبية، خاصة ضمن ما يسمى "بالأدب الموسوعي"، مثل كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودي، و" الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، و"عيون الأخبار" لابن قتيبة وغيرها من الكتب، لان الكتاب يجمع أحيانا بين الأدب والتاريخ، فضلا عن مؤلفات جمع مؤلفوها مواد أدبية وتاريخية وقصصية، ولذا من الصعب أحيانا علينا كباحثين معرفة الجانب الواقعي أو الجانب الأسطوري في المادة التراثية المكتوبة.

هارون الرشيد في كتب التراث

من الدراسات الهامة التي تناولت هارون الرشيد، دراسة الباحث يوسف سدان[٤] التي تناولت هارون الرشيد في أدب الحكايات، من خلال مخطوطات ومصادر تراثية لها طابعها الأدبي والقصصي والفولكلوري.

لقد تناولت بعض الكتب الأدبية ومنها التاريخية شخصية هارون الرشيد من جوانب متعددة ومتباينة، وبعض الاطلاع على مختلف المؤلفات، لا بد من القول بان الروايات المرتبطة بهارون الرشيد يمكن تصنيفها في مجالين، الأول الرشيد الخليفة الذي حظي بشهرة نسبيا لما وصل إليه العرب بفضله من مجد ووصلت الحضارة العباسية إلى أوج عظمتها، بالإضافة إلى القيم البطولية والدينية والإنسانية، بانَ ذلك في الكتب التاريخية المختلفة، مثل كتاب، الكامل في التاريخ لابن الأثير، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وانساب الأشراف للبلاذري.

والثاني، روايات وحكايات قد ألصقت بشخصية هارون الرشيد بدافع الحكاية أو السرد القصصي، حيث يعتمد الكاتب فيها على السرد Narrative والخيال Fiction نخص بالذكر الكتب الأدبية، نأخذ على سبيل المثال كتاب "المستطرف في كل فن مستظرف" لشهاب الدين الابشيهي، نجد حكايات لها علاقة بهارون الرشيد، لكنها لا تمت إلى الواقع بصلة.[٥] وهذا أيضا ينطبق نسبيا على كتاب آخر ورد اسم هارون الرشيد فيه، وهو مروج الذهب ومعادن الجوهر، للمسعودي، وكذلك

---

(4) J. sadan, "Harūn al-Rashīd and the Brewer: Preliminary Remarks on the Adab of the Elite versus Hikayat", in: *Studies in Canonical and Popular Arabic Literature*, edited by: S.Ballas and R. Snir, at the York Press, Toronto, 1998, pp. 1-22; De Slane, Catalogue des Manuscript arabes (Paris 1883- 1895), pp. 625-627.

وقد صدر كتاب باللغة العربية تحت عنوان هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا عن دار الفكر بدمشق، لشوقي ابو خليل، عام ١٩٨٨ حيث يتناول المؤلفات القديمة التي أوردت حكايات الرشيد دون تحليل الروايات او مقارنتها بالكتب القديمة.

(٥) انظر: الابشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٩٧، الحكاية التي ترتبط بحصول الغلاء وضيق الحال في فترته، حيث أمر الرشيد بكثرة الدعاء وأمر كذلك بكسر آلات الطرب. قارن: ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ٢٠.

الأمر كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني[٦] الذي ورد فيه أخبار أبي نواس بصورة جزئية مع هارون الرشيد، ومن المعروف أن كتاب الأغاني يعتبر كتاب أدب، لا يمتّ إلى الجانب التاريخي بصلة، فثمة الكثير من الأخبار فيه تعتبر حكايات أو قصصا أدبية. وإذن فليس من الغريب أن يذكر الذهبي بان الأصفهاني قد كان يأتي بالأعاجيب في كتابه.[٧] نشير في هذا السياق أن الجزء الخاص المكرس لأبي نواس في كتاب الأغاني قد ضاع، وما تبقى أخبار أبي نواس مع عتبة. بالمقابل نجد أيضا في كتب التراث حكايات قد ألصقت إلى أبي نواس، مثلما ما ورد لدى المسعودي في "مروج الذهب" لذا من الصعب أحيانا أن نفرق بين الأسطورة والحقيقة، وهذا هو موضوع دراستنا.[٨]

ونحن في دراستنا هذه لا نبتغي الوقوف على المؤلفات التي احتوت على قصص ترتبط بالخليفة هارون الرشيد، قدر اهتمامنا بكتاب الاتليدي، وإن أجرينا مقارنة مع كتب تراثية مختلفة.

وحول كتاب الاتليدي المذكور، فمن المعلوم أن موضوع هارون الرشيد قد غلب على أغلبية فصول الكتاب، حيث تجاوزت صفحات الكتاب مائتي صفحة يروي المؤلف حكايات الرشيد، علما بان المؤلف تناول بشكل بسيط بعض خلفاء بني أمية في البداية، كالوليد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك، وبعض خلفاء بني العباس كالمهدي والمنصور وغيرهما، هذا الأمر يجذب النظر من ناحية الكم الخاص بالرشيد.

أما القصص التي خصّها الاتليدي بالرشيد، فنذكر على سبيل المثال، بعض الحكايات المرتبطة بالجواري، وحكاياته مع أبي نواس، الرشيد وجعفر البرمكي، بكاء الرشيد على البرامكة، وكذلك الرشيد والخيزران، وحكايته مع إبراهيم الموصلي، ولا شك أن القصة التي ذاع صيتها، قصته مع الأصمعي والمعروفة بقصيدة "صوت صفير البلبل". المنسوبة للاصمعي. ولا شك أن مواد كثيرة في فصل هارون الرشيد من الكتاب تتناول حكاياته مع البرامكة، كونهم كانوا مقربين له في خلافته من الجانب التاريخي.[٩]

مصادر الاتليدي

من المعروف لدى الباحثين، أن أغلبية المؤلفين، وجامعي مادة تاريخ الأدب العربي، اعتمدوا النقل عمّن سبقهم من كتاب، ولذا ففي بداية كتبهم صرّحوا بأسماء الكتب التي نقلوا عنها رواياتهم، أو ربما في فصول كتبهم المختلفة. فالتنوخي في "الفرج بعد الشدة" يذكر مصادر كتابه في المقدمة، وكذلك ابن السراج في كتابه "مصارع العشاق"، نضيف الاصفهاني في كتاب "الأغاني" الذي يعتبر كتابا أدبيا لا تاريخيا

لكن بالمقابل نجد العديد من المؤلفين الذين لم يذكروا مصادر كتبهم، وهذا ينسجم مع كتاب "إعلام الناس" للاتليدي، حيث ذكر المصادر من خلال سرده لبعض الروايات وليس لجميعها وفق اطلاعنا على الكتاب، ومن أهم المؤلفات التي اعتمدها الاتليدي في كتابه بشكل عام والتي تخص هارون الرشيد وغيره من الخلفاء العباسيين أو الأمويين نذكر: "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودي، وكتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني[١٠]، و ثمرات الأوراق لابن حجة الأموي.

أما المصادر التي تخص الخليفة هارون الرشيد، فهي، "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي، و"الفرج بعد الشدة" للتنوخي[١١]، ولا شك لدينا أن الاتليدي قد نقل أيضاً عن كتاب "حياة الحيوان الكبرى" للدميري لكنه لم يصرح بذلك. نشير أن مؤلفات الفرج بعد الشدة التي سبقت التنوخي، ينقصها السرد والقصص غير الدينية، ويبدو أن كتاب ابن أبي الدنيا هو الذي وصلنا فضلا عن كتاب التنوخي، لكن من جهة أخرى فان مؤلفات الفرج بعد الشدة هي بمثابة مثال جيد للاهتمام ليس في فترة هارون الرشيد فحسب أي القرن التاسع ميلاديا، وإنما القرن العاشر بشكل ملحوظ.

من جانب أخر لا شك أن الاتليدي قد نقل قصصا أيضا عن مجموعة "ألف ليلة وليلة" لكن لم يشر إلى ذلك ربما لان هذه المجموعة ليست ضمن ما يسمى "الأدب الرسمي"[١٢] والتي تعتبر مشتركة للمجموعة القصصية والأدب، وليس القصص المرتبطة بالشياطين أو الخيال. لكن من جانب آخر فرغم أن مؤلفنا قد أشار في مواضع مختلفة إلى الكتب التي نقل عنها، لكن في بعض الأحيان لم يشر إلى الكتاب الذي نقل عنه، كمجموعة ألف ليلة وليلة، مما نستنتج بأنه قد اطلع على الحكاية وصاغها بنسيج خاص. من جانب آخر نحن نعلم أن قصص هارون الرشيد ذكرت في مجموعة ألف ليلة وليلة لكن هذه القصص بعيدة عن الواقعية، بل هي بمثابة أساطير شوهت شخصية هارون الرشيد الخليفة الذي اتسم بالرزانة.

أما عن سبب تأليفه للكتاب؛ فقد ورد في مقدمة المؤلف أن شخصاً طلب منه أن يجمع مادة تتعلق بالخلفاء المتقدمين من بني أمية والعباسيين، فاستجاب للطلب رغم أنه يصرح بأنه ليس قادرا على ذلك وليس مؤرخاً. ورد في مقدمة المؤلف: "سألني بعض الإخوان الموفقين ممن لا يسعني مخالفته، أن أجمع له شيئا مما وقع في زمن الخلفاء المتقدمين من بني أمية والخلفاء العباسيين، فأجبته لذلك مع علمي أني لست أهلا لذلك".[١٣]

---

(٦) انظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤: ٣٢١- ٣٥٠؛ الأصفهاني، الأغاني، حيث ورد ذكره في عدة أجزاء من الكتاب، انظر: ٣: ١٦٢- ١٦٣؛ ١٦: ٧٠- ٧١؛ ١٥: ٨٠- ٨١.

(٧) انظر: الذهبي، ميزان الاعتدال، ٣: ١٣٣.

(٨) وردت اخبار ابي نواس لدى (N. Littman, Alf Layla wa-layla, *EI* 1, E), 1960, pp. 358- 364. ولدى ابن المعتز في فصول التماثيل وتباشير السرور، ولدى الصولي في كتاب الاوراق، وابن هفان في كتاب أخبار ابي نواس الخ. قارن: ابن منظور، أخبار أبي نواس، ٤: ١٦٧. حيث يذكر ان أخبار الرشيد مع ابي نواس موضوعات لا تصح.

(٩) انظر: الاتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، ١٤٤- ٢٨٠، حيث كرّس المؤلف أكثر من مائة صفحة لخلافة هارون الرشيد، مو ايراد القصص والروايات المختلفة.

(١٠) نلاحظ أن الاتليدي عندما لا يصرح باسم الكتاب الذي ينقل عنه يذكر يُروى أو يُحكى. وكتاب الأغاني متهم مؤلفة في سرد مواد أدبية لعب الخيال دوره فيها، انظر: الحموي، معجم الأدباء، ١٣: ٩٤.

(١١) هناك ثالثة مؤلفات تحمل هذا العنوان، للمدائني (الفرج بعد الشدة والضيقة)، لابن أبي الدنيا (بنفس العنوان)، وللازدي (بنفس العنوان). انظر في كتاب الاتليدي ١٨٦ حيث يرد اسم القاضي أبي الحسن التنوخي.

(12) See: Mia I. Gerhardt, The Art of Story-Telling (Leiden), 1963, pp. 45-85; D. Pinault, Story –Telling Teachniques in the Arabian Nights(Leiden), 1992), 15-26; A. Chraibi, Contes noueaux des 1001 Nuits (Paris), 1996, pp. 32-50.

(١٣) انظر: الاتليدي، إعلام الناس، ٧.

حكايات هارون الرشيد لدى الاتليدي

لو اطلعنا على صفحات كتاب المؤلف لوجدنا أنه قد بوّبه بصورة كرونولوجية، حيث بدأ بسرد الحكايات منذ فترة الخلفاء الراشدين، مبتدئا بالخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، ثم انتقل إلى الخلافة الأموية وتناول قصصا منوطة بمعاوية بن أبي سفيان وخلفاء آخرين، ثم انتقل إلى الفترة العباسية بدءاً بالخليفة السفاح، ثم المنصور والمهدي وهارون الرشيد وغيرهم ممن جاء بعده.

لكن الذي يجذب النظر أن مؤلفنا خصص أكثر من مائة صفحة ونيّف لخلافة هارون الرشيد، تتضمن حكايات وقصصا مع مختلف الشخصيات الرزينة وغير الزينة، التي عاصرها الخليفة هارون الرشيد، كالأصمعي وإبراهيم الموصلي وأبي نواس، فضلا عن القصص التي ورد فيها الوزراء من البرامكة كجعفر البرمكي، وأيضا الجواري في قصر الخلافة وغير ذلك من شخصيات شتّى. سنشير فيما يأتي إلى بعض القصص التي وردت لدى الاتليدي نموذجا، بالمقارنة مع مصادر تراثية، وأدبية ذات الطابع الأدبي والتاريخي، وإن كانت لا تمت هذه القصص إلى الحقيقة بصلة، فهي غير مستمدة من التاريخ العباسي من جهة وإنما غلبت نزعة الأسطورة عليها.

من الروايات التي وردت في كتاب إعلام الناس للإتليدي، حكاية هارون الرشيد بصحبة جعفر البرمكي، وإذا هو بعدة بنات يستقون الماء وتنتهي الحكاية بزواج الرشيد منها. وردت الحكاية لدي الاتليدي تحت عنوان "الرشيد والمستقية"، جاء في الكتاب: "ويحكى أن هارون الرشيد مرّ في بعض الأيام وبصحبته جعفر البرمكي، وإذا هو بعدة بنات يستقون الماء فعرّج عليهن يريد الشرب وإذا إحداهن تقول:

قـــولي لطيفـــك ينثنـــي ... عـن مضـجعي وقـت المنـام
كـــي اســـتريح وتنطفـــي ... نـــارٌ تـــأجّجُ فـــي العظـــام
دنِـــفٌ تقلبـــه الأكـــف ... علـــى بســـاط مـــن سَـــقام
أمـــا أنـــا فكمـــا علمـــت ... فهـــل لوصـــلك مـــن دوام؟

فأعجب أمير المؤمنين ملاحتها وفصاحتها. فقال لها: يا بنت الكرام هذا من قولك؟ قالت: من قولي. قال إن كان كلامك صحيحا فامسكي المعنى وغيّري القافية، فأنشدت تقول:

قـــولي لطيفـــك ينثنـــي ... عـن مضـجعي وقـت الوسَـن
كـــي اســـتريح وتنطفـــي ... نـــارٌ تـــأجّجُ فـــي البـــدن
دنِـــفٌ تقلبـــه الأكـــف ... علـــى بســـاط مـــن شَـــجَن
أمـــا أنـــا فكمـــا علمـــت ... فهـــل لوصـــلك مـــن ثمـــن؟

فقال لها: والآخر مسروق قالت: بل كلامي".[١٤] وفي سبيل الإيجاز يطلب الرشيد منها مرتين على أن تغير القافية، فنجحت وأيقن أن ذلك من أشعارها، ثم أرسل جعفر البرمكي ليطلبها من أبيها، وتزوجها، ومات أبوها، فحزنت عليه، ولحقت به بعد مدة. هذه الحكاية التي لم يشر الأتليدي إلى مصدرها، وردت أيضا في المجموعة القصصية ألف ليلة وليلة.

(١٤) انظر: الاتليدي، إعلام الناس، ١٤٥. وقد وردت في الف ليلة وليلة ٤: ٦٨-٦٩.

حكاية أخرى وردت تحت عنوان "الرشيد وجارية جعفر" لدى الأتليدي، تشير إلى طلب الرشيد من جعفر جاريته التي اشتراها، ورد لديه: "ويحكى أن جعفر البرمكي نادم الرشيد ليلة فقال: يا جعفر بلغني انك اشتريت الجارية الفلانية، ولي مدة اطلبها، فإنها بديعة الجمال ولي شوق زائد إليها فبعنيها. قال: ليس عليّ فيها بيع. قال: هبنيها، قال: ولا اهبها. فقال الرشيد: زبيدة طالق مني ثلاثا إن لم تبعنيها او تهبنيها. وقال جعفر: زوجتي طالق مني ثلاثا إن بعتها او وهبتها. ثم أفاقا من نشوتهما وعلما انهما وقعا في أمر عظيم وعجزا عن تدبير الحيلة فقال الرشيد: هذه واقعة ليس لها غير أبي يوسف، فاطلبوه...".

وفي سبيل الإيجاز يأتي القاضي ويطلب من جعفر أن يبيع نصفها ويهبه نصفها، لكن الرشيد أراد أن يطأها، وأحضروا مملوكا ليتزوجها، بسبب مدة الاستبراء، ليطلقها من المملوك قبل أن يدخل عليها، لكن المملوك بعد أن عقد عليها رفض الطلاق، رغم العطاء الكثير من قبل الرشيد، ويهتدي القاضي في النهاية إلى طلب من الرشيد أن يعتق الجارية ويملّك المملوك ففعل، على مذهب الحنفيّة، وقبلت الجارية ذلك وعندئذ فسخ النكاح بين الجارية والمملوك.[١٥] وهذه الحكاية وردت أيضا في مجموعة ألف ليلة وليلة.

وقد وردت أيضا مجموعة حكايات لدى الأتليدي تشير بأن الرشيد وجعفر البرمكي يتنكران في ضواحي مختلفة من مدينة بغداد، بسبب قلق أو أرق الرشيد، نذكر مما اشتهر منها، عندما تنكرا وأرادا التجوال في نهر دجلة، وطلبا من شيخ صاحب مركب (أي صيّاد) أن يفعل ذلك، رغم أن الشيخ يعرف أن من ركب مركبا ليلا في نهر دجلة ضربت عنقه وفق ما أوصى الرشيد، لكنهما اقنعا الشيخ على ذلك، ويريا من خلال الجولة في نهر دجلة ممن يتنكر وكأنه خليفة آخر إلى انتهاء الحكاية، حيث ينضم إلى الحكاية مسرور الخادم، وقد وردت الحكاية تحت عنوان "الرشيد والخليفة الكاذب الثاني". وهذه الحكاية وردت في مجموعة ألف ليلة وليلة.[١٦] دون أن يشير الأتليدي إلى مصدرها.

(١٥) انظر: الاتليدي، إعلام الناس، ٢١١- ٢١٤. قارن: مجموعة ألف ليلة وليلة، ٢: ٣١٨- ٣١٩.

(١٦) انظر: الأتليدي، إعلام الناس، ١٩٢- ٢١١، قارن: مجموعة ألف ليلة وليلة، ٢: ٣٠٤- ٣٠٧. وردت أيضا حكايات في ألف ليلة وليلة تشير ان الرشيد وجعفر ومسرورا يتنكرون في بساتين القصر على نهر دجلة، ١: ١٤٦- ١٤٨.

ومن المعلوم أيضا وجود كثير من الحكايات في كتاب الأتليلدي ، نعثر عليها في مجموعة ألف ليلة وليلة ، مثل حكاية الرشيد والأصمعي التي وردت أيضا في مجموعة ألف ليلة وليلة ، حيث يطلب من الأصمعي أن يحدّثه بأجود أخبار النساء ، ويحكي له حكاية الأخوات الثلاث اللاتي أردن نظم أعذب الشعر والبيت الذي يكون الأملح تفوز صاحبته بثلاثمائة دينار. ولدى سماع الأصمعي الأبيات الثلاثة التالية يحكم للبنت الصغرى: "قالت الكبرى: عجبت له أن زار في النوم مضجعي ولو زارني مستيقظا كان أعجبا. فقالت الوسطى: وما زارني في النوم إلا خياله فقلت له: أهلا وسهلا ومرحباً ، فقالت الصغرى: بنفسي وأهلي من أرى كل ليلة ضجيعي وريّاه من المسك أطيبا".[١٧]

ومن الحكايات أيضا التي وردت لدى الاتليدي وفي مجموعة ألف ليلة وليلة حكاية "جميل والفتى العذري" الذي وقف على باب الرشيد وأدخله القصر حيث حدّثه بقصة حبّه وحب أحد أبناء عمّه ، ليزيل عنه القلق.[١٨] وكيف خرج ليفتش عنها في كل مكان ، وعندما غلبه النوم ، "وإذ بأشجار وأنهار وماء وأطيار على تلك الأغصان تترنم بلغاتها وألحانها.

وحكايات الرشيد تعد كثيرة نسبيا لدى الاتليدي ، منها "الضيف الطارق" أي طارق الباب وهو أبو نواس ، الذي وصف كيف قضى الرشيد ليلته مع جارية من جواريه دون أن يكون معه ، وهذا يدل على الخيال لدى الاتليلدي أو لدى من نقل عنه ، رغم انه لم يشر إلى مصدر الرواية ، وربما بلورها من خياله ، وكذلك حكاية "الرشيد والجارية السكرى" في القصر ، وأيضا "الرشيد وجارية الخيزران" حيث وجدها تغتسل ، وطلب من أبي نواس وبشار ان يعبرا عمن في نفسه ، نضيف حكايته بصحبة الأصمعي وحسين الخليع ، (وهو الحسين بن الضحاك ت ٨٤٦م). وغير ذلك من الحكايات.[١٩]

بالمقابل نعثر أيضا على حكايات تتناول الرشيد في كتب أدبية ولا تمت إلى التاريخ بصلة وأحيانا ليست واقعية ، مثل كتاب الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، حيث ورد ذكر الرشيد في أكثر من موضع من أجزاء الكتاب ، ومن القصص التي سنوردها انه كان بصحبة وزيره جعفر البرمكي يتناول الشراب ، ويستمع إلى غناء جارية ، فاستحسن الرشيد غناءها رغم انه كان بيتا واحدا وقال الرشيد :"ما كان أحوجه إلى بيت ثان" ، فأشار إليه جعفر بأن من يكمل البيت الثاني هو أبو العتاهية لقدرته على الشعر ، لكنه كان محبوسا ، فكتب إليه الرشيد بالقصة ، فكتب إليه أبو العتاهية:

ولقد كلفت أمرا عجبا اسأل التفريج من بيت الحزن

وقد عرف الرشيد بأنه سوف لا يضيف بيتا ، لكنه في النهاية نظم:

بأبي من كان في قلب له مرّة حب قليل فسرق
يا بني العباس فيكم ملك شعب الإحسان منه تفترق
إنما هارون خير كله مات كل الشر مذ يوم خلق[٢٠]

وهناك حكايات أخرى للرشيد مع أبي العتاهية ، وإبراهيم الموصلي المغني ، وكذلك الرشيد مع جاريته ماردة.[٢١]

ولا عجب أن نشير أنّ مثل هذه الحكايات لا يمكن أن تكون واقعية ، ولا تنسجم مع شخصية الرشيد ، خاصة انه امتاز بالرزانة والشدة ، والمحافظة على القيم الإسلامية.

من جانب آخر فان كتاب الأغاني يعتبر كتابا أدبيا ، وفيه الكثير من الحكايات التي لا يمكن أن تكون واقعية ، رغم أننا ندعي بأنه في كثير ممن الأحيان لا نستطيع أن نفرق بين الأسطورة والواقعية ، وهذه الأمر ينطبق على كتاب آخر اعتمد عليه الاتليدي بشكل مقلّ ، على الأقل لأنه ذكره مرة واحدة في الفصل الذي خصصه للخليفة هارون الرشيد ، نعني كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي.

ومن القصص التي تجذب النظر والتي لم يشر الاتليدي إلى مصدرها ، قصة الرشيد عندما دخل مكة المكرمة ، وأراد الطواف ومنع العام والخاص لينفرد بالطواف ، فسبقه أعرابي فمر الحاجب أن يتخلى عن الطواف حتى يطوف الرشيد ، لكن الأعرابي يذكر بأن الله قد ساوى بين الإمام والرعيّة ، فلما سمعه الرشيد راعه أمره فأمر الحاجب بالكف عنه ، ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود فسبقه الأعرابي ، والى المقام للمصلى فسبقه أيضا ، وبعد أن فرغ الرشيد من الصلاة طلب إحضار الأعرابي وجادله فأعجب به وبآرائه ، ونظم أمامه شعرا نذكر من ذلك:

هب الدنيا توافينا سنينا فتكدّر ساعة وتلذّ حينا

وفي نهاية القصة يكشف الأعرابي عن نفسه ، وأخبره انه موسى الرضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، وكان يتزيّا بزيّ أعرابي زاهدا في الدنيا. ويبدو ان هذه القصة تعتبر شيعية بسبب الاسم المذكور في نهايتها.[٢٢]

ونختتم حديثنا بقصة الرشيد والرجل الأموي ، كما وردت لدى الاتليدي ، حيث كان صاحب جاه ومال وكثير الضيافة ، وقد وردت القصة لدى ابن حجة الأموي ، والتنوخي.[٢٣]

لا شك أن القصص التي وردت أوردناها ، تحو مناحي مختلفة من الجانب الأدبي والاجتماعي ، نأخذ على سبيل المثال أن قصة الأعرابي الذي زاحم الرشيد ، لا تدل فحسب على آداب السلوك ، أو المساواة بين المسلمين ، وإنما على ما يسمى "الأجوبة المسكتة" ، بسبب إجابات الأعرابي وذكائه أمام الرشيد ، خاصة اعتماد الأعرابي على آيات من القرآن الكريم ليرد على الرشيد.

فضلا عن ذلك فهناك جانب العجائب "عجائب المخلوقات" في بعض القصص التي أوردها الاتليدي ، مثل قصة الرشيد وجميل بن معمر ، حيث رأينا أن الأشجار كانت تترنم بلغاتها. وهذه القصص نعني العجائب نعثر عليها في مجموعة ألف ليلة وليلة.

(١٧) انظر: الأتليدي ، إعلام الناس ، ١٥٢- ١٥٥ ؛ قارن: مجموعة ألف ليلة وليلة ، ٤: ٧٠- ٧١.

(١٨) انظر: الاتليدي ، إعلام الناس ، ١٧٢ ، قارن: مجموعة ألف ليلة وليلة ، ٤: ٧٢- ٧٣.

(١٩) انظر: الاتليدي ، اعلام الناس ، ١٤٨- ١٥٠. بالنسبة لحكايته مع حسبن الخليع ، انظر: إعلام الناس ، ١٦٧- ١٧٢. قارن: ابن القيم الجوزية ، أخبار النساء ، ١٢٥. وقد صدر عن منشورات الجمل في المانيا ، ديوان الحسين بن الضحاك: بتحقيق جليل العطية عام ٢٠٠٥ (منشورات الجمل: بغداد) وقد سمي بالخليع لكثرة مجونه وخلاعاته وكان من أقران ابي نواس كما جاء في مقدمة التحقيق ، ويذكر جليل العطية انه جالس هارون الرشيد قبل أن ينكب البرامكة ثم جالس من بعده الخلفاء ، ولعل رثاءه البرامكة كان سبب نفور الرشيد منه. انظر: مقدمة تحقيق الكتاب. انظر ترجمته لدى الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ١٢: ٣٧٩ ، بيروت ، ١٩٩٠.

(٢٠) انظر: كتاب الاغاني ، ٣: ١٦٢- ١٦٣.

(٢١) انظر: الاغاني ، ١٦: ٧٠- ٧١ ؛ ١٥: ٨٠- ٨١.

(٢٢) انظر: إعلام الناس ، ١٦٢- ١٦٦

(٢٣) انظر: إعلام الناس ، ١٨٦ ؛ ابن حجة الاموي ، ذيل ثمرات الاوراق ، ١٨١ ؛ التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ٤: ١٢٨.

نتائج الدراسة

حاولنا من خلال دراستنا أن نقف على حكايات هارون الرشيد كما وردت في كتاب الاتليدي ومؤلفات أدبية وتراثية أخرى ، والمسألة عندنا ليست إذا كانت القصص أسطورية أو واقعية ، وإنما ما احتوته هذه القصص من الجانب الأدبي على أعاجيب وخيالات ومسائل أدبية مسليّة. لذا ينبغي القول أن الحكايات لدى الاتليدي وإن جمعها من كتب تراثية مختلفة- مشيرا إلى مصادره وفي بعض الأحيان لا نعلم إذا غفل ذكر المصدر أو ربما من وضعه- قد ألصقت إلى هارون ن الرشيد ، ربما يرجع الأمر لأسباب أدبية أو سياسية أو اجتماعية.

تشير سهير القلماوي في كتابها ألف ليلة وليلة "بل إن ما بقي لنا من هذه الأخبار إلى اليوم يفتح أمامنا أبوابا من المشاق قي استخلاص التاريخ الحق ، لكثرة ما استولى الخيال على هذه الحقائق وصبغها بما شاء ذوق الشعب أن يصبغها به".(٢٤)

لا شك لدينا أن الاتليدي لم يؤلف كتابا في التاريخ كما جاء الأمر في عنوان الكتاب ، وإنما ابتغى تأليف كتاب أدبي جمع فيه بعض المواد التاريخية ، وهذا النهج معروف لدى المؤلفين في القرون الوسطى ، نذكر على سبيل المثال أن كتاب الأغاني ، والعقد الفريد ، والفرج بعد الشدة ، ومروج الذهب ، جمع مؤلفوها بين الأدب والتاريخ ، رغم احتوائها على قصص من عالم الخيال الشعبي ، خاصة المنقولة عن مجموعة ألف ليلة وليلة رغم عدم إشارته للمصدر الذي ينقل عنه.

وينبغي لنا القول أن كتاب الاتليدي لم يتناوله الباحثون في دراساتهم الأدبية أو التاريخية ، ولذا جاءت مقالتنا لتشير إلى بعض الجوانب المرتبطة بمؤلفات القرون الوسطى ، والفترة العثمانية المتأخرة.

ويبدو لنا أن البيئات العربية الشعبية ، لم تشأ أن تتخلى عما علق بأذهانها وما انتقل إليها وما توارثته من معتقدات طريفة ، وهذا يثبت أن بعض القصص التي نقلها الاتليدي وربما ما أضافه من قصص انسجم مع هذه البيئات المذكورة.

والسؤال الذي يطرح في نهاية دراستنا ، هل الكتاب الذي وضعه الاتليدي ينسجم مع مؤلفات أخرى ظهرت في القرون الوسطى ؟ وهل العديد من الحكايات التي ورد فيه عن هارون الرشيد تعتبر من وضع البرامكة ؟

لا شك أن الكتاب لا يوجد فيه إبداع رغم وجود بعض الأصالة نتيجة لعملية النقل عن كتب أخرى ، وهذا أمر رائج لدى مؤلفي القرون الوسطى.

المصادر والمراجع:

- الابشيهي ، شهاب الدينن المستطرف في كل فن مستظرف ، القاهرة ، ٢٠٠٠.
- ابن الطقطقا ، محمد بن علي ، الفخري في الآداب السلطانية ، بيروت ، ١٩٧٥.
- ابن المعتز ، عبد الله ابن المعتز ، فصول التماثيل في تباشير السرور ، دمشق ، ١٩٨٩.
- ابن حجة الاموي ، ذيل ثمرات الأوراق ، بيروت ، ١٩٦٥.
- ابن قيم الجوزية ، أخبار النساء ، بيروت ، ١٩٨٠.
- ابن منظور ، محمد بن مكرم ، أخبار ابي نواس ، القاهرة ، ٢٠٠٠.
- ابو هفان ، أبو هفان المهزمي ، عبد الله بن أحمد ، كتاب أخبار ابي نواس ، القاهرة ، ١٩٦٤.
- الاتليدي ، محمد دياب ، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس ، القاهرة ، ١٩٦١.
- الاصفهاني ، ابو الفرج علي بن الحسين ، الاغاني ، القاهرة ، ١٩٧٢.
- البغدادي ، تاريخ بغداد ، بيروت ، ١٩٨٢.
- التنوخي ، القاضي التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، بيروت ، ١٩٧٨.
- الجومرد ، جزيل عبد الجبار ، هارون الرشيد ، بيروت ، ١٩٩٩.
- الحسين بن الضحاك ، ديوان عر ، منشورات الجمل ، ألمانيا ، ٢٠٠٥.
- الذهبي ، محمد بن احمد ، ميزان الاعتدال ، بيروت ، ١٩٦٨.
- سدان ، يوسف سدان ، الأدب الهازل ونوادر الثقلاء ، ألمانيا ، ٢٠٠٧.
- شوقي ، عبد الحكيم شوقي ، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية ، بيروت ، ١٩٨٢..
- الصفدي ، خليل بن ايبك ، الوافي بالوفيات ، بيروت ، ١٩٩٧.
- الصولي ، محمد بن يحيى ، كتاب الأوراق ، بيروت ، ١٩٨٢.
- القلماوي ، سهير القلماوي ، ألف ليلة وليلة ، القاهرة ، ١٩٦٥.
- كلو ، اندري كلو ، هارون الرشيد ولعبة الأمم ، بيروت ، ٢٠٠٥.
- مجموعة ألف ليلة وليلة ، بيروت ، ٢٠٠٠.
- المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ، ١٩٧٣.
- مؤلف جهول ، أخبار البرامكة ، بيروت ، ٢٠٠٦.

- Alf Layla wa-layla, EI 1, (N. E), 1960. Littman
- D. Pinault, Story –Telling Teachniques in the Arabian Nights(Leiden), 1992), 15-26; A. Chraibi, Contes noueaux des 1001 Nuits (Paris), 1996.
- De Slane, Catalogue des Manuscript arabes (Paris 1883- 1895).
- G. von Grunebaum, " The Spitit of Islam as Shown in its Literature", Studia Islamica I (1953).
- J. sadan, "Harūn al-Rashīd and the Brewer: Preliminary Remarks on the Adab of the Elite versus Hikayat", in: Studies in Canonical and Popular Arabic Literature, edited by: S.Ballas and R. Snir, at the York Press, Toronto, 1998
- Mia I. Gerhardt, The Art of Story-Telling (Leiden).
- U. Marzolph, Arabia Ridens, Frankfurt, (1992).
- van Gelder, "Mixtures of Jest Earnest", Journal of Arabic Literature, 22 (1992).

(٢٤) انظر: سهير القلماوي ، ألف ليلة وليلة ، ٢٤٧.